أسبار في تل الرماد في عام ١٩٦٣

تقرير أولي

بقلم

هنري دو كونتانسون و ويليم ج . فان لير[1]

تعريب وتلخيص عدنان البني

إن موقع تل الرماد ، قرب قطنا ، على بعد خمسة عشر كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من دمشق ، معروف منذ مدة بعيدة ، فقد ذكر الأب يوسف نصر الله أن هذا التل ، وهو يسميه تل قطنا : « أهم محطة في منطقة دمشق » . ومنذ وقت قريب جمع أحدنا (و . ج . فان لير) من هذا التل أدوات صوانية وافرة كانت موضوع دراسة نشرت منذ وقت قريب[2] . وفي كانون الأول ١٩٦٣ أجرت المديرية العامة للآثار والمتاحف أسباراً في هذا التل لتحديد طبقاته عهد إلينا الدكتور سليم عادل عبد الحق بإدارتها وساعدنا في ذلك السيد مصطفى المملوك الذي نحن مدينون له بإعداد المخطط الطبوغرافي للموقع .

---

(١) راجع التعليقات والشروح والمراجع واللوحات والرسوم في المقال الأصلي المنشور في القسم الأجنبي من المجلة . (المعرّب)

(٢) راجع العدد الماضي من المجلة . (المعرّب)

يتألف التل ، الذي تبلغ مساحته ١٥٠ × ١٧٥ م ، من سطح منخفض في الشرق وأكمتين في الغرب (اللوحة ٩) وقد حفرنا فيه ثلاثة مربعات ضلع كل منها خمسة أمتار . وصلنا في اثنتين منها إلى الأرض الحرة (طبقة البازلت) التي كانت على عمق حوالي ٤,٨٠ م في المربع الشرقي و ٥,٧٠ في المربع الغربي . وقد يكون عمق الطبقات أكثر من ذلك في الجزء الشمالي من الموقع .

ويقوم التل على الهضبة البازلتية بمحاذاة وادي قطنا . وقد شق هـذا الوادي مجراه في الهضبة في دور « البليستوسين » وقاعه مملوء بطبقة من صوان البليستوسين وهو أسمر خشن . وعند تل الرماد تكثر بين هـذا الصوان الأدوات الصوانية التي تعود للدور الحجري القديم الأعلى وللدور الحجري الوسيط وكلها ، بخلاف أدوات الدور الحجـري الحديث ، مكسوة بكمخة سمراء واضحـــة جداً . ولا شك في أن المكان كان يرتاده صيادو آخر دور البليستوسين (اللوحة ١٠) .

إن تمييز طبقات التل أمر في غاية التعقيد ، وقصارانا في هذا التقرير الأولي إعطاء فكرة مبسطة عنها . ويحتاج الإلمام بها بشكل صحيح إلى طرائق أكثر عناية . وإلى تنقيب يمتد على مساحات أوسع . وعلى أية حال تم بلوغ الهدف الرئيسي من الأسبار ، وهو معرفة طبقات التل بشكل عام .

لاشك في أن أهم ماتم الحصول عليه هو وجود عمارة متطورة كثيراً في الطبقات العديمة الفخار (١) . أما الطبقة الأدنى ففيها قيعان و سطوح مستديرة مكلسة ، أما ماتبقى من الطبقات فهي مكونة من جدران منهارة مع كميات وفيرة من الرماد خاصة في المربع الغربي . ويبدو أن البيوت على جانب من الاتساع غرفها مستطيلة مستديرة الزوايا ، أساساتها من اللبن أو الحجارة الضخمة « الغشيمة » ومن « كُرات الفخار » . ولم نجد بعد أرضيات من الملاط بالمعنى الصحيح . ويبدو لنا أن باحات السكن كانت غالباً من التربة المدقوقة . وهناك دلائل على أن الجدران كانت مكلسة جزئياً .

---

(١) يقسم الدور الحجري الحديث إلى طورين : ماقبل الفخار Précéramique (أي قبل اختراع الفخار) وما بعد الفخار Céramique • أما هنا فالمقصود بطبقة عديمة الفخار Sans céramique طبقة لم يعثر فيها على فخار ، ولكن لايمكن القطع بأنها سابقة لاختراع الفخار • (المعرّب)

وهناك ظاهرة هامة جداً ، هي وجود جماجم مقلوبة ومجصصة في ناحية المربع الشمالي ، قرب السطح . وهي ملونة جزئياً بلون أحمر غامق ومغلّفة بكوات غضار مجصصة وملونة أيضاً .

ويسمح لنا التفحص السريع للمقاطع (اللوحة ١١) بإبداء الملاحظات التالية :

المربع الغربي

(الأرقام التالية هي الارقام المذكورة في اللوحة ١١) :

١ ـ في العشرين سنتمتراً الأولى تربة رمادية حصوية متغيرة بالانزلاق .

٢ ـ طبقة مختلفة الثخانه متغيرة بفساد التربة .

٣ ـ على عمق ٦٠ سم ، في الجهة الشرقية ، أرضية مدقوقة وهي السوية التي تكثر فيها الكسر الفخارية الغامقة الملمّعة وهناك سطوح أخرى تتوضح في الزاوية الشمالية الشرقية حتى عمق ١٦٠ سم .

٤ ـ حتى عمق ١٠٠ سم في الجهة الشمالية ثلاثة سويات لأساسات جدران من الحجارة المستديرة .

٥ ـ على عمق ١٢٠ ـ ١٦٠ سم في الزاوية الجنوبية الشرقية جدار منهار من آجر الكلس والتراب . وهناك ظاهرة غريبة في هذه الطبقات العليا هي وجود جيب كبير مليء بالرماد عمقه ١٨٠ سم . ويجدر بالذكر أن كسر الفخار الغامق الملمّع موجودة حتى هذا العمق . ونرى أن جيب الرماد مرتبط بسوية ٦٠ ـ ٨٠ سم .

٦ ـ على سطح هذه الطبقة بلاط من عهد لاحق .

٧ ـ في وسط جيب الرماد كومة من الحجارة الضخمة لا نعرف مدلولها .

٨ ـ السويات التالية تتألف من تتابع جيوب وسطوح مائلة في جميع الاتجاهات ونادراً ما تكون أفقية . والتربة كثيرة الرماد تتناوب مع تربة سمراء قوية قد تكون باحات سكن خارج البيوت . وهناك عدة مواقد أحدهما مغطى بحجارة نهرية واجزاء جدران من اللبن والحجارة المستديرة . وفي هذه السوية تكثر أجزاء الملاط .

٩ ـ بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ سم سويتان هامتان من جدران لبن منهارة يتخللها الرماد .

١٠ ـ وتحت ذلك إلى سوية الأرض الحرة نجد التربه كثيرة الحصى . ويلاحظ وجود قاعين اصطناعين محفورين في الصخر البازلتي ، لعلها دلالة على سكن في الأكواخ .

المربع الشرقي :

١١ — كرقم ١ .

١٢ — كرقم ٢ . ويدل احمرار هذه التربة الأثرية على أن السطح قد ترك زمناً طويلاً جداً .

١٣ - بين ٨٠ — ٢٦٠ سم تتعاقب جدران كثيفة مؤلفة من عدة مداميك من الحجارة الكبيرة وهي لا شك تعود لمبان هامة .

١٤ — الكتلة بين الجدران تتألف من اللبن ومصدره من الأقسام العليا المنهارة . ولم نعثر على أرضيات مكسوة بالملاط في هذه السويات .

١٥ — بين ٢٠٠ — ٢٨٠ سم في الجهة الشمالية جدار من اللبن دون أساس .

١٦ — بين ٢٥٠ — ٣٥٠ سم طبقة كثيفة من الرماد والحصى المكسّر .

١٧ — اعتباراً من عمق ٣٠٠ سم حتى الأرض الحرة تتعاقب سطوح مستديرة نوعما ومكلسة . والسطح الذي يقابل عمق ٣٥٠ مسوّى ، ويمكن اعتباره « أرضية ملاط » .

١٨ — وقد أبقيت الارضية المقابلة لعمق ٤٢٠ سم دون أن تمس (لوحة ٧ ب) .

١٩ — على الأرض الحرة كما في المربع الغربي ، قاع اصطناعي وجدنا فيه أدوات منزلية كالمنقش ، والمثقب ، والمسحقة والمدق .

المربع الشمالي :

٢٠ — الطبقة العليا كسابقاتها في المربعين السابقين بصورة عامة إلا أن فيها أثر مجرى اتشكالي يمكن متابعته حتى أسفل التل .

٢١ ، ٢٢ — على عمق ٤٠ سم ، في الجهة الجنوبية الغربية ، أساس جدار من « كرات الفضار » المقعّرة ، عليها طبعات نباتات . أما أقسام الجدار العليا فهي من اللبن وآثار انهيارها واضحة .

٢٣ — في الجهة الغربية من نفس السوية باحة مبلطة بالحجارة البازلتية المكسرة .

٢٤ – في السوية نفسها عدد من المواقد الصغيرة . وجزء الجدار المؤلف من ثلاثة مداميك في زاوية الجهة الشمالية – الغربية هي أحدث من سوية « كُرات الفخار » .

٢٥ – في السوية السابعة تربة مضطربة الشكل كثيرة الرماد والأملاح . ولقد أوقفنا السبر الشمالي على عمق ٩٠ سم بسبب عثورنا على قبور قد يحتاج نقضها الى وقت أكبر .

والخلاصة يمكننا القول بأن المربع الغربي يمثل غالباً طرف القرية ، حيث البيوت مبعثرة تنتثر بينها مواقد خارجية . وفي المربع الشرقي مواقد كثيرة ومبان مستديرة في الطبقات السفلى ، ولكن فى السويات الوسطى العليا نجد فيه عمارة كثيفة ومتطورة . أما منطقة المربع الشمالي فلعلها ساحة كانت تمارس فيها طقوس جنازية في آخر عهود التل .

* * *

هناك على ما يلاحظ من دراسة الطبقات والأدوات ثلاث سويات في التل هي من الأسفل إلى الأعلى I ، II ، III .

السوية I

وتتراوح ثخانتها بين ٢ م (المربع الشرقي) و ١٫٧٠ م (المربع الغربي) . وفي الغربي لا تتضح معالم أرضيات بيوت بينما في الشرقي الأرضيات واضحة وباحات مكلسة كانت معدة للعمل . وليس من أثر للفخار في هذه السوية . والأدوات كلها حجرية يغلب فيها المناجل المضاعفة أو المناشير . وهناك شظايا ونصيلات من الأوبسيديين . وأدوات مصنوعة من البازلت وهي موفورة اعتباراً من الأرض الحرة ومنها المدقات الأسطوانية والأرحاء الخ . ومن العظم نجد مساحق ومثاقب .

ويمكن تمييز طورين في هذه السوية نرمز اليهما بـ A و B .

الطور I A : ثخانته متر في المربع الشرقي ونصف متر في الغربي (اللوحة ١ A و اللوحة ٤ A) ، وهو يبدأ على الأرض البازلتية الحرة مباشرة . وقد أتينا في الفقرة السابقة على وصف الأرضيات فيه ، إلا أننا لم نستطع توسيع الحفر في قاع المربعين الشرقي والغربي ،

لاضطرارنا إلى الإبقاء على المعالم العمرانية في الطبقات العليا . فليس في وسعنا أن نفصّل في وصف بنية هذا الطور ، أما من ناحية الأدوات فهو يتميز بتفضيل الصوان الدقيق الأبيض أو الضارب للبنفسجي ، ويستعمل خاصة في صنع رؤوس سهام قصيرة مفرّضة ومناقش ونصلات ونصيلات مشذبة وهي جميعاً من الأدوات الصغيرة ، وليس هناك من الأدوات الكبيرة سوى قدوم . ونجد أدوات من الحجر الكلسي المنحوت ، منها كسر رأس مغزل وحلقة كبيرة . والأدوات الحجرية والعظمية في هذا الطور تدل على استيطان حضري قائم على الزراعة والصيد معاً .

الطور I B : ثخانته حوالي ١٫٣٠ م ، وفيه تتابع أرضيات مساكن ، وتربة رمادية غضارية . وفي المربع الشرقي نجد كذلك باحات مكلسة ، بينما نلاحظ في الغربي جزءاً من جدار من اللبن .

تتميز صناعة الأدوات الحجرية في هذا الطور بالتشذيب المسطح الذي يظهر على بعض عناصر المناجل أو السكاكين ونجد التشذيب الوافي على رؤوس السهام والحراب ذات الشكل الورقي ، وتكثر الأدوات ذات الوجهين وهي ذات حد مصقول . وتبدأ المكاشط المستديرة بالظهور . كما يتميز هذا الطور بقصعات حجرية إحداها من الرخام المصقول . وهناك دمى من الفضار غيرالمشوي : رأس جمل ، ورأس ثور ، وشكل انساني تقريبي وساق . ويبدو أن التحضر قد توطّد في هذا الطور .

السوية II

وهو خال من الفخار أيضاً ولكنه يتميز بآنية بيضاء من الكلس مصنوعة بالقالب (اللوحة ١ D ، اللوحة ٢ A - C ، اللوح ٧ B) ارتفاع هذه السوية متران . نجد في قاع هذه السوية ، سواء في المربع الشرقي أو الغربي ، طبقة ثخنها ٢٠ سم خالية من أية معالم . وتتألف السوية كلها من تربة سمراء مع أرضيات متعاقبة وجدران قائمة ، أساساتها من الحجر ، تؤلف غرفاً غير منتظمة زواياها مستديرة نوعما . ولم نتبين اتساع الغرف إلا أن عرض احداها يتراوح بين ٤ — ٥ م . الجدران مشيدة بالحجر الغشيم . وتبلغ ثخانتها ٤٠ — ٧٠ سم . وفي الوضع

الراهن لم نجد جداراً بقي منه أكثر من نصف متر (أربعة أو خمسة مداميك) والأجزاء العليا من الجدران من اللبن ومنهارة . ويلاحظ في هذه السوية ، في كلا المربعين ، مرحلتين في العمارة لا تتبع إحداها الأخرى في اتجاه الجدران أو محاور البناء .

والأواني البيضاء المصنوعة من الكلس التي أتينا على ذكرها في الفقرة السابقة عبارة عن صحاف كبيرة شفاهها مستديرة ، ولها كعب قصير مجوف أو قعر مسطح . أما عناصر المناجل فمنها ما هو ذو أسنان صغيرة أو أسنان كبيرة والفئة الثانية قد تكون مناشير أو مناجل مضاعفة والسكاكين متنوعة جداً .

وتكثر رؤوس الحراب ذات الشكل الدرقي وذات التشذيب المسطح ما عثرنا عليه في الطور IB ولكن رؤوس السهام يتغير شكلها فيكون ساقها قصيراً أو متطاولاً . وقد استصنعت المكاشط المستديرة من شظايا كثيفة . أما الأدوات ذات الوجهين فهي تشبه ما عثرنا عليه في سوية IB . كما ان أدوات البازلت تتبع الأساليب السابقة نفسها . ونضيف إلى ما تقدم بلطة مصقولة . وتصبح الادوات العظمية وفيرة جداً كالمثاقب القصيرة العريضة والمساحق والمصاقل والعمد المفوّضة . وجدير بالذكر العثور على إبرة طولها ١١ سم ومغزل أو مكوك محطم وقدح في قرن محفور .

أما الحلي فهي عبارة عن خرزة أنبوبية الشكل وخاتم من العظم وخرزة أنبوبية أخرى من حجر الهياتيت وست أصداف منقبة . أما اللقى المصنوعة من الطين غير المشوي فكلها ناقصة أو تقريبية يصعب تفسيرها ما عدا دمية تمثل حيواناً آهلا .

وإن ما اكتشف في المربع الشمالي يمكن رده للسوية II (اللوحة ٢ D واللوحة ٧ D) سواء من حيث شكل الأدوات الصوانية أو فيما يتعلق بأسلوب العمارة وهناك علاوة على ما وجد في المربعين الشرقي والغربي مواقد عديدة وقبور أطفال .

السوية III :

وهي ممثلة بشكل أكيد في المربع الغربي ، إذ أن السطح الشرقي للتل كان مهجوراً في ذلك الوقت . وقد تجمعت القرية في الجهة الغربية منه . وهذه السوية سمكها متران من التربة الرمادية (من حيث اللون والتركيب) وهي تملأ البيوت التي تصل إلى عمق ٢/٤٠ م في الجهتين الغربية والشمالية . وفيما يتعلق بالعمارة لا نجد سوى أجزاء جدران وأطراف مصاطب تتألف من مدماك واحد من الحجارة .

والميزة الرئيسية في السوية III . هي ظهور **فخار** حقيقي متجانس تماماً أي الطبقات المتلاحقة (اللوحة ٤ D و C ، اللوحة ٥ ، اللوحة A VI) والفخار مصنوع باليد من تراب أسمر مع بلورات دقيقة جدا ، ووجه الفخار صقيل وغالباً ملمّع ، فهو يدخل في **فئة الفخار الغامق الملمّع** حسب تعبير الأستاذ ر . ج . بريدوود . وليس في أشكال الأواني الفخارية تنوع كثير فهنـاك **الطاسات نصف الكروية** ، و **القصعات ذات الكعب الحلقي الصغير** ، و **الصحاف التي تتميز بحليات تحت شفاهها و الجرار الأسطوانية العنق أو المنفرجة** قليلاً ذات العرى الممتدة من الشفة حتى الكتف والقعر المسطح وهناك **صحفة لها مصب** . ويزين الفخار قبل الشي **بحزوز** نجدهـا على ظاهر القصعات والصحاف ، والغالب أن التلميع لا يتعدى النطاق تحت شفة الإناء وما تبقى من جوانب الإناء تترك **للتزيين البارز** وهو يتألف غالباً من حزوز قصيرة عميقة أفقية وهناك حزوز عمودية تحدث بمشط وأقل من ذلك الحزوز المنكسرة الشكل . وبعض المواعين الضخمة سطحها خشن عليه **طلاء خارجي ضارب للبياض** ولعلها قدور .

وتكثر اعتباراً من هذه السوية عناصر **المناجل الكبيرة الاسنان** وكذلك **السكين الكبيرة الأسنان المستصنعة من شظية مسطحة كبيرة** . وبصورة عامة نجد القسم السفلي من حدها مشذبا . **ورؤوس النبال والحراب** هـي من النموذج ذي الساق والتشذيب المسطح . ويقل وجود الأوبسيديين وما يزال **البازلت** مستخدماً في صنع **المدقات والمضارب** . **والحجر الكلسي** يكثر استعماله في **القصعات والصحاف** ، ولا تختلف **الصناعة العظمية** عما عرفناه في السوية II . ونلاحظ وجود **شص** مستصنع من ناب حيوان **وأضلاع محززة** بخطوط متوازية وقرون من الطين لعلها كانت جزءاً من دمى تمثل أبقارا .

ويمكن أن نميز في هذه السوية طورين :

الطور III A : ثخانته متر ، فيه آنية بيضاء ، ونسبة قليلة من الفخار (اللوحة ٣ B) وقليل ذلك أن الفخار المشوي لم يحل محل الآنية البيضاء إلا تدريجياً ، أو أن الكسر السمراء دخيلة وتعود للجيوب المذكورة آنفا . وفي هذه الحالة يجب أن نرد هذه الطبقة للسوية السابقة .

ويشيع استخدام **الصوان** المسطح في صناعة **السكاكين والمكاشط والبلطات المسطحة المصقولة الحد** . وتكثر **شظايا النحت ولب الصوان** (المقصود نواة الحجر الصواني بعد اقتطاع أجزائه الخارجية لصناعة الأدوات ـ المعرّب) وبعضه بشكل هرمي يستخدم **كمناجر** .

الطور III B هذا الطور يغطي المتر الأخير في أعلى المربع الغربي وفيه تندر الآنية البيضاء بينما يصبح الفخار الأسمر وفيراً ، أما الأدوات الصوانية فلا تختلف في شيء عما عرفناه في كل أطوار السوية III (اللوحة ٣ C) .

الطور III C وهو يمثل سطح القسم الغربي من التل ، وهو يمتاز بأن فيه مع الفخار الغامق الملمّع فخار مماثل ولكنه ضارب الحمرة وأحياناً ملمّع ، وفخار « كاشف اللون » فيه بلورات كبيرة ، وعليه طلاء أحمر . ولعل اجراء تنقيب في قمة التل قمين بتزويدنا بمختلف نماذج هـذا الضرب من الفخار في الطبقات التي ترد اليها . وعلى كل حال إنها تمثل آخر العهد بهذه القرية التي تعود للدور الحجري الحديث .

* * *

وبالمقارنة مع المناطق المجاورة نجد أن السوية I لها بعض الشبه « بالطور B من سوية ما قبل الفخار في الحجري الحديث » في موقع أريحا ، وبعض أدواتها الصوانية قريبة الشبه « بالطور النطوفي الأخير » في موقع الخيام ، وببعض ما يعثر عليه في رأس بيروت ، وفي الطبقات العليا من مغارة الواد قرب يافا ، وفي تل فرّاعة وأبي غوش .

يتضح إذن أن هناك نسباً بين سوية I في تل الرماد وفلسطين والساحل اللبناني ، كما ان للسوية II صلة بالساحل السوري اللبناني فهي تشابه السوية V B في رأس الشمرة و ٨٤ – ٨٢ في تل سوكاس (الحجري الحديث الأول) وجبيل (الحجري الحديث الأول) وهناك بين صناعة الصوان في جبيل وفي سوية II من تل الرماد بعض التشابه وكذلك بعض الاختلاف . ولها مشابهات في « الطور الطاحوني » في موقع الخيام وفي كهف التوامين وكذلك في طور ما بعد الفخار في الحجري الحديث بأريحا . ونجد من ناحية العمارة مشابهات مع فلسطين وشمال سورية .

والأدوات الصوانية في السوية III قريبة الشبه بما عثر عليه في (تبّة الحمام » في سورية ، والحجري الحديث الثاني في جبيل ، وببعض ما عثر عليه في بجدو وأريحا في فلسطين . والصناعات العظمية تشبه ما عثر عليه في بعض مواقع فلسطين . أما الفخار فيدخل في فئة الفخار الغامق

الملمّع وهو أقدم أنواع الفخار في الأناضول وفلسطين . ولكنه غير مماثل له كثيراً فليس فيه من حيث الشكل والزخرف غنى الأواني المكتشفة في مرسين وسهل العمق وحماة ورأس الشمرة . وعلى أية حال ان الحزوز المشطة بشكل عمودي ، والمصب في أفواه الأواني ، في مثل هذا العهد القديم لم يعثر على مثله خارج تل الرماد .

وبالاستناد إلى ما عرف ونشر حتى الآن نرانا ميالين إلى نسبة تل الرماد إلى حضارة واحدة امتدت في الدور الحجري الحديث على فلسطين كلها . وبما أن الرأي متفق على أن المنطقة السورية ـ الكليكية كانت مركز انتشار الفخار الغامق الملمّع فلا بد أنه انتشر عن طريقين الأولى عبر الساحل وجبيل . والثانية خلال سورية الداخلية وتل الرماد . وقد تكون هاتان الطريقان المختلفتان قد ولدتا أسلوبين متميزين عند التقائهما عند بحيرة طبريا في الألف الخامس . وهما اليرموكي من جهة والحجري الحديث الساحلي في فلسطين من جهة ثانية (اللوحة ٨) .

هذا ويبدو أن الفخار ذا الطلاء الأحمر المنسوب للطور IIIC في تل الرماد قريب الشبه بما يماثله في الدور الحجري الحديث الثالث في جبيل وفي السويه VIII بأريحا . الأمر الذي قد يجعل آخر عهود تل الرماد في مطلع الألف الرابع .

٭ ٭ ٭

وبختام هذا العرض الأولي لتطور تل الرماد لا بد أن نذكر بطابعه المؤقت ، فهو قابل ، بالفعل ، لتعديل جذري بنتيجة تحليل بعض عينات الفحم التي جمعناها منه ، ودراسة العظام الحيوانية وهي وفيرة ، وبتنقيب أكثر اتساعاً يستحقه مثل هذا الموقع .